في المحكمة 61 بلندن مؤلف «شيفرة دافنشي» يدافع عن نفسه:

الانتحال الادبي ظاهرة مثيرة وعصية على الحل وبالنسبة لدان براون مصدر جديد للاعجاب!

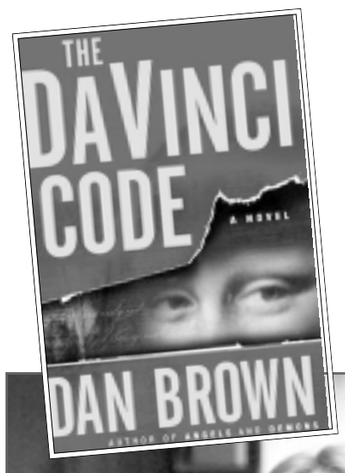

دان براون يغادر المحكمة في لندن (ا ف ب)

ابراهيم درويش*

■ يسمونه انتحالا او بالانكليزية -plagiarism والكلمة كما يعرفها القاموس، تعني استخدام مواد علمية او ادبية لكاتب والتعامل معها كأنها من عمل المنتحل بدون الاشارة من قريب او بعيد للمصدر. الانتحال يحدث يوميا في الاكاديميات العلمية، والطلاب الان يستخدمون الانترنت والمصادر المتوفرة للحصول على معلومات وابحاث وكل ما يقومون به هو تظليل المواد ونسخها ثم طباعتها وتغليفها وتقديمها للاستاذ، وفي بداية الاسبوع الحالي، اثار احد كبار مسؤولي جامعة اوكسفورد العريقة انتشار ظاهرة الانتحال بين الطلاب والتي تمر بدون ملاحظة وهي منتشرة بشكل كبير بين طلاب الدراسات العليا. والانتحال اضحى مشكلة كبيرة، ففي الوقت الذي تطلب فيه الجامعات من الطلاب الاشارة الى المصدر الالكتروني وتقديم العنوان الكامل له من اجل الرجوع عليه حالة ملاحظة وجود نوع من التناقض في الكتابة الا ان الجميع يعترفون بصعوبة محاصرة المشكلة، الانتحال ـ حتى المسؤول في جامعة اوكسفورد يعترف بالمشكلة وصعوبة حلها. الحديث عن الانتحال في الادب طويل وهناك باحثون يكرسون انفسهم وحياتهم لاقتناص الاعمال التي تنتحل من الاخرين، وهي عملية عبثية في ظل انتشار الكتابة والمعلومات والانترنت التي تحولت الى «غرب متوحش» قائم بذاته، ولكن الانتحال والحديث عنه يأخذ منحى اخر، عندما يتعلق الامر بعمل جماهيري عالمي كبير، يتهم فيه مؤلفه بالانتحال، فالمسألة لا تتعلق هنا بالحيادية العلمية ولكن بصناعة النشر والكتابة والملايين التي حصل عليها هذا المؤلف او ذاك. فهناك حقوق الكتاب، ثم حقوق الترجمة ومن ثم حق الاقتباس والمعالجة السينمائية وبعد ذلك حقوق الاقتباس من الرواية بالاضافة لرحلات الكاتب واجور المحاضرات وحقوق المقابلات واجورها، تلفزيونية كانت ام صحافية.

الحديث هنا يدور حول صناعة تقوم باستثمار القراء وتحاول الحصول على المال بكل الطرق، فالكتاب يصدر بطبعة انيقة وبعدها بطبعة شعبية، وبعدها يصدر مقروءا على شريط، وفي مرحلة لاحقة يصدر بحروف كبيرة لمساعدة الكبار، ملخصا، مصورا الى ما لانهاية.. ولهذا السبب يمكن النظر الى المحكمة التي تدور في لندن، في المحكمة 61 الجنائية التي يحاكم فيها الكاتب الشعبي المعروف دان براون بتهمة انتحال فكرة روايته الاشهر «شيفرة دافنشي» من عمل اخر يحمل عنوان «الدم المقدس الكأس المقدسة» من تأليف هنري لينكولن، ريتشارد لي مايكل بيجنت

الذين رفعوا دعوة ضد شركة راندوم هاوس، الناشرة لرواية دان براون الاشهر.

وتحاول المحكمة تحديد زمن الانتحال وكأن التاريخ يعيدنا عقدا للجدل الذي اثارته الناشطات الانثويات حول زمن الاغتصاب. دان براون يقول في جلسات المحكمة انه لم يطلع على الكتاب محل الاتهام الا بعد ان اعد ملخص الفكرة وقدمها للناشر، ومن هنا جاء المدعي العام بنسخة قديمة متداعية من الكتاب المذكور مليئة بالتعليقات على هامش الصفحات. في دفاع دان براون (41 عاما) عن نفسه اكد انه لا يقوم بالبحث وانما زوجته بلايث، والكتابة، التي كانت ترسل له الكثير من الوثائق والكتب من بيت اهلها القريب، وتتركها على طاولته، وتحدث دان براون عن البداية المتواضعة له عندما كان ينشر الكتب بنفسه ويبيعها من صندوق سيارته الخلفي للمارة وكيف كان يعتمد على مقابلات اذاعية للحصول على اموال اضافية. وفي قفص الشهادة اشار براون الى انه نشأ في حرم اكاديمية فيلبس ايكستر في نيوهامبشير حيث كان والده يدرس الرياضيات، وهي المدرسة التي درس فيها عدد من الكتاب المشهورين مثل غور فيدال. كل هذا قبل ان ينشر روايته التي غيرت مسار حياته واصبحت عملا مقروءاً في كل انحاء العالم. كل هذا يعزز فرضية ان وراء المحكمة التي قد تفيد دان براون او تضره اذا خسرها، المال والشهرة. مع ان فكرة الرواية موجودة في الادبيات الغربية منذ ازمنة طويله والمح الى هذا امبرتو ايكو المهتم اصلا باوروبا القرن السادس والسابع عشر التي تشكلت فيها فكرة الحداثة، واشار الى وجود روايات عديدة عن هذه الفكرة الا ان دان براون اعطاها بعدا جديدا. وفي المحكمة اكد براون على ان زوجته هي التي كانت تقوم بقراءة الكتب وتحديد المهم له، وكيف انه قام بكتابة مخطط الرواية ولم يذكر في مخططها اسم الكتاب محل الجدل، كما اكد ان زوجته لم تقرأ الكتاب قبل كتابة المخطط الذي اشفعه بقائمة من المراجع لكي يثير اعجاب ناشره. حديث براون عن الدور الذي لعبته زوجته في بناء شهرته ومساعدته في الكتابة اعاد الى الاذهان الدور الذي لعبته نساء في حياة المشاهير، فالمثل المعرف وراء كل عظيم امرأة يصدق في حالات كثيرة، فناباكوف، الكاتب المعروف كان يعتمد على زوجته فيرا، التي كانت سكرتيرته، وناشرته، ووكيلته، وسائقته، وكانت تقطع له اللحم وتضعه في فمه على مائدة الطعام، ومع ذلك عندما كان يحين موعد النوم كان يذهب للفراش وحيدا، ولكن ليس كل النساء يرضين بهذا الوضع فزوجة الكاتب المشهور توماس كلارايل جين، شعرت بالمرارة والغضب من الدور الذي فرض عليها مع انها ساعدت زوجها كثيرا. في حالات كثيرة استخدم الكتاب مشاكلهم العاطفية للالهام في اعمالهم الروائية، كما حال ف. سكوت فيتزجيرالد، ودي اتش لورنس، وتيد هيوز، الشاعر المعروف. الشاعر ووردزورث، حالة اخرى في هذا الاتجاه، حيث اعتمد على زوجته واخته، واخت زوجته في كتابة نسخ اشعاره وكتبه، وبعض الباحثين اقترحوا ان اخت الشاعر دوروثي لعبت دورا اكبر من نسخ الاشعار. في حالات كثيرة كان الناقد او الكاتب هو الوجه الاخر للكاتب الحقيقي للعمل كما في حالة الناقد الفرنسي هنري غوتييه ـ فيلارز الذي اشتهر في بداية القرن العشرين، حيث الف سلسلة «كلودين» التي تبين فيما بعد انها من كتابة زوجته الشابة سيدوني ـ غابرييل كوليت.

رواية دافنشي وشيفرته، صارت معروفة بعد ان ترجمت لأكثر من اربعين لغة في العالم وبيع منها الملايين، موضوعها عن اصول الديانة المسيحية ـ وتأخذ شكل الرواية البوليسية او الاثارة ودور احداثها في فترة زمنية لا تزيد عن 24 ساعة. والكاتب يلعب لعبة الخديعة منذ البداية عندما حاول ان يموضع القصة في اطار تاريخي حقيقي، وكعادة الروايات التاريخية فانها تتحدث عن العثور على وثيقة سرية في المكتبة الوطنية في باريس، عام 1975 على ملف يعرف باسم «ملف الاسرار». وهي تتحدث عن اعضاء جمعية سرية (رهبانية سيون)، تضم اسماء معروفة في العالم الادبي، فيكتور هوغو، والرسام المعروف ليوناردو دافنشي، والفيزيائي المعروف اسحق نيوتن. في مجال اخر يقول ان الجمعية الاخرى منظمة طريق الرب (اوبس دي) انتهت من انشاء مقرها المركزي في نيويورك بكلفة 47 مليون دولار امريكي. وهي جمعية تأسست في اسبانيا عام 1928 وتدعو للحفاظ على القيم الكاثوليكية المحافظة والتضحية بالنفس والعفاف. والحديث بصيغة الحقيقة محاولة لخداع القارىء ان احداث القصة حقيقية مع ان محورها معروف هو الصراع بين الخير والشر والظلمة والنور. كما تتخذ الرواية من الرموز في الاعمال الفنية، والمشاهد المعمارية اوصافا حقيقية، تبدأ الرحلة من متحف اللوفر في باريس الى كنيسة روزلين في جنوب ادنبرة، الاسكتلندية مرورا بكنيسة وستمنستر أبي، فلوحة العشاء الاخير تحمل في طياتها سرا يتصل بالديانة المسيحية، وهناك محاولة لبناء خط بين رهبانية سيون وحركة فرسان المعبد (تيمبليرز) التي ولدت اثناء الحروب الصليبية. ومؤسس الحركة السرية كان غودفرا دي بويون بعد احتلال القدس مباشرة. فما السر في هذه الجمعية؟ السر يكمن في انها عثرت على الكأس المقدسة التي شرب منها السيد المسيح في العشاء الاخير الذي جمع تلامذته. ويعتقد المسيحيون ان الفرسان احضروها معهم من الارض المقدسة بعد ان عثروا عليها بين انقاض معبد سليمان في فلسطين في القرن الثاني عشر، واخفوها في مكان سري في اوروبا، ومنذ تلك الفترة والبحث جار عن الكأس. تتخذ الرواية من هذا الموضوع او الموضوعات الدينية اطارا لكشف سر الكأس المقدسة ولكن بصورة بوليسية، حيث يتم اغتيال جاك سونيير، مدير متحف اللوفر الذي نكتشف انه عضو في الجمعية السرية «سيون»، وسبب اغتياله يعود لأنه كان وصيا على سر الاسرار.

وتبدأ الشرطة الفرنسية بالتحقيق في الحادث وتستعين بخبرات الاكاديمي الامريكي روبرت لانغدون، نظرا لمعرفته في فك الشيفرات والرموز الدينية، والصدفة وضعته في مركز التحقيق حيث كان في باريس لالقاء محاضرة في المجال الذي يتخصص فيه، وتشارك في التحقيق حفيدة سونيير ـ الباحثة هي الاخرى في علم الشيفرات ويقوم الثنائي معا بتحليل رموز في لوحات فنية لدافنشي، والتركيز تحديدا على رمز النجمة الخماسية، التي تظل اقدم الرموز العالمية بحسب لانغدون، وترمز في الطقوس الى الانثى، ويدخل الكاتب هنا في نقاش حول رمز الانثى وغيابه، فالمرأة ظلت رمزا للشيطان واستبعدت من الطقس الديني. المرأة اذا هي جزء من محاولة سر اغتيال سونيير الذي يكشف المؤلف انه اكتشف سر الخديعة التي مارستها الكنيسة حول المرأة واعتبارها بلا روح، وتمثل لوحة الموناليزا رمزا سريا عن رفض هذا الفهم، فدافنشي كان يرى ان الانسانية لا يمكن لها السمو الا بالرجل والمرأة معا.

الرواية تعيد تشكيل وفهم وضع المرأة في التفكير الديني الوسيطي، فمحاكم التفتيش الكاثوليكية قامت بنشر كتاب عن شرور المرأة الساحرة وقامت الكنيسة هذه باحراق الكثيرات منهن. كل هذه التوليفة الروائية لوضع سياق الوثائق في سياقها التاريخي، حيث نعرف بحسب السرد ان الفاتيكان كانت تعرف بسر الكشف الذي حمله معهم فرسان الهيكل من الارض المقدسة وكيف قام البابا اينوسنت بمنح الفرسان سلطات لا حدود لها، مما جعلهم قوة لا يستهان بها في القرن الرابع عشر، مما حدا بالبابا كليمينت الخامس بضربهم وقام بالتعاون مع ملك فرنسا فيليب الرابع، وتم في حيثيات العملية اعدام العديد من اتباع هذه الجماعة. لكن السر الذي يشار اليه احيانا بـ«سيدة القصور» أو «العشاء الاخير» ظل محروسا من قلة من اتباع هذه الجمعية.

في الموقع الرسمي للكاتب على الانترنت لا توجد اشارة الى المحكمة المنعقدة في لندن، ويكتفي الموقع بالحديث عن المناسبات المتعلقة بالكاتب، والتعليقات على اعماله الاخرى مثل «ملائكة وشياطين»، «نقطة الخديعة»، و«القلعة الرقمية». وبالنسبة للمعجبين بدان فقد كانت مناسبة للانتظار امام قاعة المحكمة ولساعات طويلة للحصول على توقيع او اتوغراف منه. وبراون بالنسبة لمجلة «تايم» الامريكية واحد من 100 شخص مؤثر في العالم، وشيفرة دافنشي، بيع منها في كل انحاء العالم اكثر من 40 مليون نسخة، واحتلت رواياته قائمة الكتب الاكثر مبيعا في عدد من مدن العالم.

وفي عام واحد 2004 احتلت اربع روايات له المرتبة الاولى في قوائم «نيويورك تايمز» للكتب الاكثر مبيعا. ودان براون خريج كلية امهرست، واكاديمية فيليبس اكستر، في نيوهامبشير، حيث عمل مدرسا للغة الانكليزية. وفي عام 1996 قاده عمله في تفكيك الشيفرات والعمل مع وكالات الحكومة السرية لكتابة اولى رواياته «القلعة الرقمية»، عن الأمن القومي وعلاقته بالخصوصية الشخصية، التي لم تعد موجودة في امريكا بعد احداث ايلول (سبتمبر) 2001. رواية «شيفرة دافنشي» تدخل ضمن اطار الادب البوليسي والذي يقوم باستلهام احداثه من عالم الكنيسة الوسيطي، ولكن بلغة حديثة، وكان امبرتو ايكو، بارعا في استخدام هذا في روايته الاشهر «اسم الوردة» التي نشرها في بداية تسعينات القرن الماضي، عن مخطوطة تسممت اوراقها، لمنع الكهنة والقساوسة من الاطلاع على محتوياتها، التي قد تشير الى البحث عن السعادة، الحب المحرم، وعندما تكثر عمليات الموت الملغزة يحضر محقق، قس من الكنيسة الانكليزية للمساعدة في اكتشاف الفاعل، حيث يقوم الكاهن، القبيح بحرق الدير على من فيه بعد اكتشاف سر القتل، حيث يكتشف المحقق ان كل الموتى من القساوسة يموتون بنفس الطريقة، اصابعهم ملوثة بالحبر والسنتهم كذلك، مما يقوده الى اكتشاف سر المخطوطة الملوثة.

ولكن ايكو في تصويره لعالم الدير الكئيب يشير لحرص الكاهن الانكليزي على انقاذ التراث الوسيطي هذا والذي قد يكون عربي الاصول، حيث يحاول حمل ما يستطيع من الكتب والمخطوطات على ظهر حماره مع مساعده الذي وقع في حب فتاة فقيرة تعيش على احسان القساوسة القساة. واعتبر كثير من النقاد رواية ايكو ذات طابع بوليسي بنكهة شعبية ولكنها تظل رواية عميقة في مساءلتها لمعنى الحب والسعادة، ومعنى القداسة والدين.

* ناقد من اسرة «القدس العربي»

شاهد نفي

شِبهُ الحداثة!

خيري منصور*

■ أول ما تجب الإشارة إليه درءا لأي التباس حول هذا العنوان وهو شبه الحداثة، هو أن النقيض الفعلي للحَداثة ليس الكلاسيكية، بل هذا التشبه الذي يلبس لبوسها، ويتقمص قناعها ومعجمها، فالحداثة ليست جزيرة محاطة من كل الجهات بقرائنها بدلا من الماء، وشبهها ليس شبه جزيرة بحيث يبدو المشهد كما لو أن قوسا واحدا سقط سهوا من الدائرة، فالحداثة بدءا من رؤيا، وسياق معرفي ترفده حساسية، وليست مجرد محاكاة لنموذج ما، لهذا تبدو عندما تأتي ملفقة ومترجمة بتصرف أشبه بالمهرج الذي يرتدي كل ما تصل إليه يداه، وقد يجازف بترصيع صدره بأوسمة هي في حقيقتها أغطية زجاجات فارغة ملقاة على الرصيف!

لقد حاول أكثر من شاعر عربي أن يضع للحداثة حدودا تقريبية وأن يعيد لها الاعتبار المسلوب كما فعل أدونيس في مناقشته الشهيرة لأوهام الحداثة، التي قد لا تكون خمسة فقط، بل تصل إلى المئة، إذا قرر الشاعر الاستطراد في رصد هذا الركام المنعوت بالحداثة!

***

أثناء بحثي في الكتب والمجلات التي كرست بكاملها أو في أجزاء منها لرصد الحداثة عثرت على مقالة استوقفتني بشكل لم أستطع تخطيه لأنها جسدت دفعة واحدة تناقضات لا يتاح لها أن تتجسد إلا في عدد من الكتب والدراسات. المقالة نشرتها مجلة «مواقف» العدد 25 لجوزيف صايغ تحت عنوان «أين الحداثة»؟

يقول كاتبها: «قبل إبداء الرأي تقتضي النزاهة حيال الذات والقارئ بأن ألفت بأنني شخصيا سلفي، كلاسيكي وعمودي على صعيد الشعر بحيث أحس مخلصا بأنني رجعي أكثر مما أنا تقدمي، قديم أكثر مني حديثا، وأقرب إلى الأيكولوجيين مني إلى الثوريين، مع هذا أختار مع رامبو الحداثة الملحة على حساب وفائي!!

في هذا الاعتراف المشكور لأسباب سجالية بالطبع تتضح المسألة بكل جوانبها، فثمة إصرار على حداثة تقيم خارج الذات والوعي والممارسة، وثمة فصل حاسم بين نظرية وتطبيق، وهذا الاعتراف يبدو للوهلة الأولى ملغزا، إذ كيف يعترف شاعر بأنه رجعي وعمومي ويختار الحداثة، فالأمر يتطلب أحد أمرين، وهما إعادة تعريف الكلاسيكية والحداثة معا، أو القبول بهما باعتبارهما وجهين لظاهرة واحدة، كي لا نقول عملة واحدة! ولو شئنا أن نرسم صورة كاريكاتيرية معادلة لهذا الاعتراف المزدوج، لرسمنا بدويا بكامل لباسه التقليدي تتأرجح على صدره ربطة عنق ويسوق سيارة فارهة بالعصا!!

هنا نجد افتتانا بحداثة رامبو من خارجها تماما، لعلها الرغبة الطفولية في الإقامة في الحاضر دون احتياز أدوات وطرائق هذه الإقامة، أو لعلها الانزلاق إلى قعر البئر السحيقة والسقوط في شيزوفرانيا لم تعد سرية!

لقد ذكرتني المقالة المذكورة فور الانتهاء من قراءتها بعد أعوام عديدة من نشرها بما قاله ت. س. إليوت لكن على نحو مفارق، ومعكوس، فإليوت قال أنه كلاسيكي في الأدب، ملكي في السياسة، وكاثوليكي في الدين، لكنه لم يقل مثلا بأنه كلاسيكي ويعشق رامبو أو لوتريامون، كما أنه لم يقل أيضا بأنه كاثوليكي ولكنه يفضل البروتستانتية أو أي شيء كهذا!

***

علينا أن نعد أنفسنا كي نفهم المزاعم الجمالية المضطربة، بأن نتخلى طواعية عن ثلاثة أرباع خبراتنا وقراءاتنا وتجاربنا في الكتابة، فالكيمياء الحداثوية التي سوقت لنا نظريا في فترة ما هي أقرب إلى «الخيمياء»، وثمة من زعموا بأنهم يمتلكون حجر الشعراء كبديل أو مرادف لحجر الفلاسفة، وكدنا نصدق بادئ الأمر أن ميداس الحداثة العربي ما أن يمس الخيمة أو أحد أوتادها حتى تتحول إلى كمبيوتر تتدفق منه المعلومات.

إن الحداثة بهذا المعنى الذي يحاصرها بين قوسين هما قوس الاتباعية وقوس المحاكاة أو التقمص الشكلاني هي نقيض الحداثة، حتى بذلك المعنى الذي ودع فيه الألمان حداثتهم الأولى في بيان شهير نعاها عام 1815، أي قبل قرن ونصف على الأقل من بشارة الحداثة العربية التي أطلقتها القابلات المتخصصات في استبدال الأجنة أو وأدهم في الأرحام!

وقد غاب عنا زمنا أن الحداثة حداثات والبنيوية بنيويات أيضا، فالمصطلحات ليست كبسولات محظور علينا فحصها لأنها ممهورة بتوقيع الطبيب الذي حدد الوصفة، وإن المرء ليستغرب كيف لم يهتم النقد العربي في العقود الماضية بحداثات أخرى متجادلة مع حداثة الأدب كحداثة الفلسفة، وعلم الاجتماع وما أضيف إلى الأنثروبولوجيا في بعدها الكشفي حول المتعلقات الاجتماعية والتربوية والطقسية بالإبداع.

إن عربا يعيشون في السياسة والاقتصاد والتربويات الشفوية حقبة ما قبل الدولة يتطلعون إلى العيش في الوقت ذاته في ما بعد الحداثة، وقد تكون مقالة صايغ التي توقفنا عندها كنموذج عينة نموذجية.

إن التلفيق الجديد لكائن نصفه من طين ونصفه من نور، أو نصفه من ثور ونصفه الآخر من صقر، لا يرقى إلى الأسطورة، بل يبقى دونها بكثير، فهو إفراز تاريخ محتقن، وهناك عبارة قد تبدو عادية وبسيطة قالها آلن روب غرييه عندما سئل ذات يوم عن الرواية الجديدة أو الرواية المضادة حسب التعبير السارتري، فقد قال.. إنها كما أكتبها ولا شيء آخر.

هذه الإجابة تختصر الكثير عما يمكن قوله حول الأصل والصورة، والإفراز العضوي الأصيل والتقمص، أو المحاكاة، فالبشر عندما اضطروا بسبب تراكم المعرفة إلى تصنيفها في تيارات وخانات ومدارس، تورطوا من حيث لا يدرون بالتنميط، والامتثالية، وأخيرا القَطعنة، ذلك ببساطة لأن ما قاله برنارد شو عن المسيح يصح على ماركس وفرويد وسائر السلالة، فالمسيح ليس مسيحيا وفرويد ليس فرويديا، وماركس ليس ماركسيا، لأن تحويل تراث الأسئلة والهواجس إلى يقين وأدلجة هذا اليقين ثم «أيقنته» هو القتل الآخر الذي يستهدف الموتى!

فالفيلسوف والشاعر والمفكر لا يموتون إلا عندما تفرض على نصوصهم توابيت منهجية كتلك التي رفضها بإصرار كيركيغارد ورفض إدراج نفسه في أية خانة، خصوصا بعد أن رأى النقاد الكسالى يدافعون عن بطالتهم في التصنيف المدرسي «السكولائي» للفكر الإنساني ومغامراته الباسلة!

***

هل نبقى في حدود وصف مشاعرنا؟ ولا نجتاز التعبير بمعناه الاصطلاحي الدقيق؟ وهل نبقى أسرى غضب يتولى القلب فيه التفكير نيابة عن الدماغ؟ لكي نوهم أنفسنا والآخرين بانتسابنا إلى الراهن الحي؟

ثم نستجدي تاريخيتنا من استجابة آنية سرعان ما تتلاشى حتى أصداؤها ثم نغادر القاعة لنجد أنفسنا في الغرف ذاتها؟ وفي قتامة المجهول ذاته؟

إن المسافة الهائلة بين ما نقوله عن الحداثة وبين ما ننجزه فيها تفضح تباعدا بيننا وبين أنفسنا، بين منقولنا المعرفي المستعار وبين وجداننا الجائم على تخوم رومانسية مطلية بقشرة لغوية أكثر هشاشة من قشرة جرح موشك على الاندمال!

إن معظم الشعر العربي الآن يتصارع مع لغة اكثر مما يتصارع مع وجود وشروط تاريخية وحصارات كونية، فاللغة لم تعد في هذا الصراع رموزا، بقدر ما هي الوجود نفسه مسطوا عليه ومترجما إلى أقصى تجريد!

في حالة كهذه سيكون سباق الشعراء كسباق الخيل، فالخيول المتسابقة حتى عندما تفوز تصبح مغتربة عن فوزها، لأنها أداة سباق ولا وجود لها بمعزل عن فرسانها!

وعندما تحل اللغة في هذا الميدان بديلا كاملا لما تومئ أو تحيل إليه يكون التنافس على أشده بحثا عن «اللامطروق».

لكن اللامطروق هذا، ليس في مجال تأمل العالم والوجود واصطيادهما في رؤى لأن المغامرة لغوية خالصة، فيصبح الشاعر أعمى تقوده كلمات آسرة هي في نهاية المطاف ليست كلماته، بل الشهد الذي أفرزه نحل آخر أكثر نزوعا إلى المغامرة والتحليق ومكابدة البحث عن الرحيق مهما نأى!

***

ما سماه الوجوديون سوء الطوية أفسد الكثير من إبداعنا الحديث، فالإلحاح الدرامي والإفراط في البحث عن التفرد كانت لهما عواقب غير سارة على الإطلاق، وقد لا نبالغ إذا قلنا بأن بعض النصوص تبدو كما لو أنها كتبت خصيصا لنقد بنيوي، أو لتفكيك يشترط أمثالها..

أليس الأمر في حالة كهذه مثيرا للإشفاق أكثر من السخرية؟

وهل من متطلبات الحداثة في أشد أبعادها شكلانية وبعدا عن الحراك والجمال الفاعل أن يبدد الشاعر طاقته كي يحقق وهما اسمه هاجس التفرد عبر اللغة فقط؟

إن بعض المصطلحات الأكثر تداولا في نقدنا المدرسي كالغنائية والواقعية والحداثة.. أصابها التورم وباتت بحاجة إلى إعادة فحص وتمحيص فالغنائية ليست حكرا على شعرية صوتية تعنى بالكلام «الموسوق»! إنها رؤيا، فقد يكون المؤرخ غنائيا إذا هيمن عليه السرد الأفقي على حساب التأمل والمقارنة والتحليل.

وقد يكون الروائي غنائيا إذا تحول شخوصه إلى ناطقين رسميين باسمه وحده..

إن السياسة أيضا وكذلك الاقتصاد معرضان للإصابة بجرثومة الغنائية كرؤيا.. ومنهج، فسياسة لا تقيم وزنا للعلاقة المعقدة والإشكالية بين الحاكم والمحكوم، تنتهي إلى سياسة غنائية، أو نشيدية خالية من أية جدلية تاريخية.

وحين نسمع ما يقال عن اقتصاد الصدقات، وما يتبرع به الموسرون للفقراء ينصرف ذهننا إلى اقتصاد غنائي، يراوح بين رعوية غربت ولم تغرب ظلالها وبين ربوية سيكولوجية تتلخص في بحث الموسر الذي يشعر ببعض الإثم عن توازن ما.. حتى لو كان وهميا.

إن حداثة مخلوعة من كل سياقاتها، ومترجمة بتصرف وتحوير يتيحان لها التأقلم مع هذا الواقع الملحمي.. هي شبه حداثة، وهي النقيض الفعلي للحداثة.. وليست الاتباعية هي نقيضها!!

* شاعر وكاتب من الاردن

بناية حديثة وضخمة لدار الكتب بتونس:

آلاف النفائس والمخطوطات وتقنيات حديثة للترميم والصيانة

تونس ـ «القدس العربي» ـ من شمس الدين العوني:

في سوق العطارين بالمدينة العتيقة التونسية، وجدت البناية القديمة للمكتبة الوطنية والمكتبة الخلدونية الملحقة بها حيث يتردد الباحثون والطلاب أمام مخزون المكتبة القديم والحديث وطاقة الطلب الكبيرة، كان لا بد من مقر آخر يلبي هذا التطور الذي شهدته مجالات البحث والدراسة خصوصا أمام توفر المستخدمات التقنية والوسائط...

هكذا افتتحت البناية الحديثة للمكتبة الوطنية أنشطتها في مقر فخم به قاعات كبرى للبحث ووسائل حديثة لصيانة وتعهد المخطوطات القديمة والنادرة فضلا عن البحوث البيبليوغرافية عبر الفهارس اليدوية والالكترونية وقاعة للدوريات تقع بالبرج وتضع على ذمة الباحثين والقراء خمسة عشر ألف مجموعة من الدوريات التونسية والأجنبية.

المكتبة الوطنية الحالية هي وريثة مكتبات افريقية الاسلامية – الاسم الأصلي للبلاد التونسية – من ناحية والمكتبة الفرنسية التي أحدثت بمقتضى أمر من الباي علي باشا في آذار 1885 من ناحية ثانية. تشكل رصيدها في البداية من مجموعة كتب وفرتها ادارة التعليم العمومي، أضيفت اليها فيما بعد مكتبة قنصل فرنسا. وعرفت المكتبة انطلاقتها الفعلية عندما انتقلت الى سوق العطارين سنة 1910 وخاصة اثر تسمية لويس باربو حافظا عليها الى غاية سنة 1943.

لم يكن الرصيد العربي يشكل ابان الاستقلال سنة 1956 سوى سدس الرصيد العام عندما اتخذت الدار تسمية المكتبة الوطنية وأسندت ادارتها الى الأديب الراحل عثمان الكعاك، ومن ثمة بذل باحثون وموثقون تونسيون جهدا كبيرة لتعزيز الرصيد واثرائه حسب سياسة اقتناء مدروسة حتى يصبح اليوم يتعدى المليون مجلد نصفها باللغة العربية.

وفي سنة 1967 تقرر تجميع المخطوطات التي كانت موجودة في مختلف المكتبات والزوايا والمساجد بالجهات باستثناء المكتبة العتيقة بالقيروان التي أعيدت الى القيروان.

واغتنى رصيد المخطوطات بمكتبات أخرى سواء بواسطة الشراء أو الاهداء وأهمها مكتبة حسن حسني عبد الوهاب ومحمد ماضور.

وهكذا أصبحت هذه المؤسسة غنية بالمراجع والمصادر لتضطلع بدورها الأساسي كمكتبة وطنية تحقق جمع التراث المطبوع على أنواعه والتعريف به في نشرية دورية سنوية وهي البيبليوغرافيا الوطنية مع اسناد الترقيم الدولي الموحد للكتب والدوريات.

وبهذا المقر الجديد تطور استعمال التقنيات الحديثة في استيعاب المعلومة وبثها فضلا عن تعزيز المخابر وتطورها لتكون عصرية وتستجيب لحاجيات الأقسام من تقنيات وعمليات فنية حسب الاختصاصات الدقيقة وقد تم انجاز هذا المشروع تصورا وتنفيذا سنة 2005 من قبل خبرات تونسية ومؤسسات وهياكل وتعتبر المكتبة الجديدة من أحدث المكتبات في العالم العربي حيث التقنيات التوثيقية العالية وستمكن المنظومة الجديدة في الجانب المعلوماتي من تركيز بوابة وتوثيقية تسمح بالبحث الآلي سواء في فهارس المكتبة الوطنية أو في فهارس المكتبات العالمية.

في هذا القضاء الحديث المميز بجوانبه المعمارية والجمالية، نجد قاعة للبحث تمسح مساحة 1200 متر مربع وتتسع لـ220 مقعدا، اضافة الى قاعة المطالعة الكبرى بنفس المساحة وقاعات المجموعات ومجموعة مكاتب للباحثين ومخابر للتجليد والترميم والتصوير بالميكروفيلم والترقيم والاعلامية وأمراض الكتاب الى جانب المخازن الخاصة بالمخطوطات وقاعة المحاضرات وفضاء المعارض ومبنى المصالح الفنية والتقنية والادارة وفضاء استقبال الزوار والمطعم والمساحات الخضراء والجنان.

جانب من دار الكتاب

وهناك نظام حماية للوثائق والمخطوطات وشبكة لمراقبة الحرارة والرطوبة ومصاعد لنقل الكتب وتربط المخازن بالقاعات.

يتكون رصيد المكتبة الوطنية من 24 ألف مجلد و40 ألف عنوان ومليون مجلد من الكتب و16 ألف دورية وخرائط وبطاقات بريدية وأقراص ممغنطة ودوريات آلكترونية والفهرس الآلكتروني في 24 ألف تسجيل للمخطوطات و250 ألف تسجيل للكتب والدوريات.

في بوابة المكتبة الوطنية هناك معلومات عامة وعملية حول المكتبة وجملة من الخدمات عن بعد للقراء الباحثين والحرفيين من ناشرين ومكتبيين وغيرهم فضلا عن الوثائق المرقمنة في شكل صورة أو نص كامل، هذا وتضع المكتبة الوطنية عينة هامة من وثائقها في شكل مكتبة للتعريف بما تزخر به من ثورة وثائقية ولتوفير أوعية بديلة تمكن من مزيد الحفاظ على الوثائق الأصلية.

وبخصوص الجانب التقني في التعهد والصيانة، تحتوي المكتبة الوطنية في مقرها الجديد على مخابر وتخص التجليد الفني والتسفير والترميم والرقمنة والتصوير بالميكروفيلم والأمراض الخاصة بالكتاب.

وبمناسبة تدشين المقر الجديد للمكتبة الوطنية، أقيم معرض لنفائس الكتب والوثائق النادرة وذلك لابراز تعدد اللغات والمواضيع وطرافة الأحجام والأشكال وتنوعها فضلا عن العينات من أقدم الطبعات والمخطوطات النفيسة.

هذا وتسعى المكتبة في مقرها الجديد الى تفعيل النشاط الثقافي والأدبي من خلال اقامة ندوات ولقاءات مع أدباء ومفكرين وباحثين وهو ما تتيحه الفضاءات الجديدة من حيث المساحة وهو ما أعلنت عنه المديرة سامية القمرتي في لقاء خاص بالاعلاميين خلال زيارة الى الفضاءات الجديدة لدار الكتب الوطنية وفي كلمته، ذكر الدكتور محمد العزيز بن عاشور بأهمية الدور الذي تؤديه المكتبة الوطنية على الصعيد الثقافي والمعرفي والابداعي كما نوه بكل من ساهم في هذا الانجاز الذي يعد من المكاسب الكبرى تونسيا وعربيا لطابعه الثقافي والحضاري والانساني.

هكذا، تكون البناية الجديدة للمكتبة الوطنية معلما آخر من معالم الثقافة والفكر في تونس بالنظر لما تمثله من حاضنة للمعلومة والمخطوطة ونفائس الكتب.